(١٢) هنرى ديفيد ثورو : **والدن : أو : الحياة فى الغابات**

بقلم : وولتر هاردنج

ربما يعد كتاب هنرى ديفيد ثورو «والدن» (١٨٥٤) من أكثر الكتب غير الروائية إقبالاً من الجمهور على قراءته وذلك كعمل متكامل من أعمال الأدب الأمريكى فى القرن التاسع عشر. ظهر فى حوالى مائتى طبعة مختلفة وتمت ترجمته فى الواقع إلى كل لغة أساسية حديثة. لكن من الغرابة بمكان أنه فى حياة كاتبه اعتبر بصفة عامة كتاباً فاشلاً يعتمد على تقليد الكتب الأخرى. واستغرق خمس سنوات لكى تباع الطبعة الأولى منه والتى لم تزد على ألفى نسخة، ولم يحدث أن طبع مرة أخرى حتى وفاة كاتبه. ويعد التحول الجذرى فى الاستقبال النقدى له بطول القرن الماضى جديراً بالاكتشاف.

ولد ثورو فى كونكورد بولاية ماساتشوستس فى ١٢ من يوليو ١٨١٧. تخرج فى كلية هارفارد فى عام ١٨٣٧ وكان من الطلبة الذين حازوا مرتبة الشرف فى دفعتهم. بعد ذلك عاد إلى كونكورد مسقط رأسه ليعمل بالتدريس، لكنه بحلول عام ١٨٤١ أدرك أن الكتابة -لا التدريس- هى مهمته فى الحياة. وتحت رعاية رالف والدو إيمرسون جاره فى كونكورد وزميله فى الفلسفة الترانسيدنتالية تحول ثورو إلى تأليف القصائد والمقالات أولاً لمجلة «الدليل» الترانسيدنتالية ثم لدائرة متزايدة فى الاتساع من الصحف والدوريات.

وفى عام ١٨٤٥ عندما بلغ الثامنة والعشرين أقام كوخاً على شواطئ بركة والدن على مبعدة

حوالى ميلين من قلب كونكورد حيث عاش هناك سنتين كتب فيهما الكتابين اللذين نشرهما فى حياته : «أسبوع على ضفاف نهرى كونكورد وميريماك» و «والدن» . وكان فى والدن عندما قبض عليه لرفضه دفع الضرائب التى تتيح له حق التصويت ، وذلك كاحتجاج ضد استعباد الزنوج مما أدى به إلى قضاء ليلة فى الحبس .

وبعودته إلى قريته ليعيش فيها عام ١٨٤٧ قضى البقية الباقية من حياته القصيرة تماماً فى التأليف وإلقاء المحاضرات ومراقبة مملكتى النبات والحيوان من واقع إقليمه ، وبهذا ترك كونكورد التى لم يعد إليها إلا على سبيل تغيير الجو من حين لآخر ولفترات قصيرة كانت بمثابة الأساس الذى أقام عليه كتب رحلاته التى نشرت بعد وفاته . وكان يكسب قوته من حين لآخر بتسويق وتصنيع الأقلام الرصاص فى مصنع أبيه ، وكم كان المال الذى يحتاج إليه قليلاً لكى يستمر فى حياته التى نهضت على مبادئ البساطة .

مات فى ٦ من مايو عام ١٨٦٢ عندما بلغ الرابعة والأربعين من عمره وكان معاصروه حتى ذلك التاريخ لا يرون فيه أكثر من شخص شاذ غامض ، ولا يزيد عن كونه مقلداً سطحيًّا لصديقه وجاره إيمرسون . ولم يبدأ فى الحصول على أية شهرة عريضة حتى نهاية القرن ، بل إنه لم يحصل على المكانة الجديرة به إلا فى السنوات الخمس والعشرين الماضية فقط .

أما بالنسبة لتحفته «والدن» فهى تعد على المستوى الظاهرى سردا للعامين والشهرين واليومين من حياته التى قضاها فى كوخه عند بركة والدن . وفى ٤ من فبراير ١٨٤٦ عندما كان فى والدن ألقى ثورو محاضرة على جمهور من المثقفين عن «توماس كارليل وأعماله» من مواطنيه فى قاعة الجمعية الأدبية فى كونكورد . وعندما انتهت المحاضرة قال له جمهوره من المستمعين : إنهم كانوا يفضلون الاستماع إلى سرد عن حياته الخاصة بالقرب من البركة عن الإنصات إلى محاضرة عن أسكتلندى غير مثير وصعب !

وبمجرد استيعاب هذا التلميح بدأ فى إعداد محاضرة بعنوان «تاريخ حياتى» وقام بإلقائها فى جمعية كونكورد الأدبية فى ١٠ من فبراير ١٨٤٧ . وكان سروره البالغ أنها استقبلت بحماس لم يسبق له مثيل ، وطلبَ منه أن يكررها ويزيد من طولها بعد ذلك بأسبوع . وكانت هذه المحاضرة ومثيلاتها الأخرى التى تبعتها بمثابة المادة الخام لكتاب «والدن» .

وطبقاً لهذا المنطق فإنه طالما أن المحاضرات قد أثبتت شعبيتها إلى هذه الدرجة فلابد أن تكون هناك سوق رائجة لكتاب يتناول الموضوع نفسه ، ومن هنا قرر ثورو أن يزيد من طول

المحاضرات من أجل عملية النشر. وقبل أن يغادر البركة فى سبتمبر من عام ١٨٤٧ كان قد أكمل مسودة الكتاب ، وبحلول عام ١٨٤٩ أعلن أنه جاهز للنشر. وكان الفشل الكامل لكتابه الأول «أسبوع على ضفاف نهرى كونكورد وميريماك» والذى نشره على نفقته الخاصة فى عام ١٨٤٩ – قد جعل الناشرين الكفاة يهربون رعباً من نشر «والدن».

وبدلاً من أن يصاب ثورو بالرعب اليائس من جراء تطور الأحداث بدأ فى إعادة كتابة «والدن» لكى يحسنها . وعلى مدى السنوات الخمس التالية أعاد ثورو كتابته كاملاً لأكثر من مرة – وصلت إلى ثمانى مرات منفصلة بعضها عن بعض – على سبيل المراجعة والإضافة والصياغة والحذف وتحريك الجمل ، وأحياناً نقل فقرات كاملة من فصل إلى آخر. وكانت النتيجة واضحة لأى واحد قام بفحص شذرات المسودات الأولى التى تحتفظ بها الآن مكتبة هانتنجتون : لقد استفاض فى التفاصيل إلى حد كبير ، لكن الكتاب أصبح أكثر تنسيقاً وإحكاماً وأفضل على كل المستويات . ولو كانت المسودة الأولى هى (الوحيدة) التى نشرت فإن احتمال حصول هنرى ثورو على شهرته الحالية كان يبدو ضئيلاً !

والكتاب فى الواقع سرد لحياته على ضفاف بركة والدن . وكما يقرر فى الصفحة الأولى – فإنه كتبه استجابة «لاستفسارات خاصة جدًّا من أهالى مدينتى عن أسلوب حياتى» . ونحن نعرف كيف اختار موقعه بالقرب من البركة ؟ وكيف قام بتقطيع الأشجار الضرورية ، وبناء الكوخ ، والانتقال إليه فى يوم الاستقلال عام١٨٤٥ على سبيل الدلالة المناسبة على المعنى ؟ وكيف قام بزراعة حديقة لكى تمده بالطعام والدخل اللازم ؟ وكيف قام برعايتها بل حصادها ، والأسلوب الذى استخدمه فى طلاء جدران الكوخ ، وبناء المدفأة من أجل الشتاء ؟

وهكذا على هذا المنوال يمكن قراءة الكتاب كنوع من «مغامرات روبنسون كروزو» ، لكنها فى القرن التاسع عشر هذه المرة . من هذه الزاوية فإن لها سحراً رعويًّا هارباً من متاعب المدنية ، أثبت قدرته الكافية على إغراء قراء كثيرين بالتقهقر إلى الغابات وبناء كوخ على سبيل التقليد الصريح لحكيم بركة والدن . وسيكون من المثير أن نعرف بالضبط عدد من قاموا بتقليد ثورو : فعبر السنين لابد أن يكون عددهم قد بلغ المئات على وجه التأكيد إن لم يكن الآلاف ! لكنه أمر أكثر إثارة أن نلاحظ أن ثورو كان قد تنبأ بوضوح بمثل هؤلاء التلاميذ المقلدين ، لذلك خرج عن إطار السرد فى كتابه «والدن» وقال بالحرف الواحد : «إننى لم

أضع فى اعتبارى أى إنسان سيتبنى أسلوبى المعيشى بأية حال » .

ويمكن أن يُقرأ « والدن » أيضاً على أنه سرد لحياة النبات والحيوان فى كونكورد . وقد قضى ثورو جزءاً كبيراً من وقته عند البركة ، بل جزءاً كبيراً من حياته كلها ، فى مراقبة ودراسة الطيور والحيوانات والزهور والشجر ، وتوالى الفصول . وقد كرس جزءاً كبيراً نسبيًّا من الكتاب لرصد ملاحظاته هذه . ويعتقد معظم معاصرى ثورو أن هذه الأقسام هى الأجزاء (الوحيدة) ذات القيمة فى الكتاب ، وأكثر من واحد ممن تعرضوا لعرضه فى صحف ومجلات القرن التاسع عشر – نصح لقرائه بالتغاضى عن الأجزاء التى هى أكثر فلسفة فى « والدن » ، بالتركيز على الكتابة التى تدور حول الطبيعة . وبالفعل فإن ثورو بهذا كان يقدم فيها إنجازاً أدبيًّا حقيقيًّا .

وعلى الرغم من أنه كان هناك كتّاب قبله تناولوا الطبيعة فى كتاباتهم من أمثال جلبرت وايت وجون جيمس أودبون – فإن الفضل يعود بحق إلى ثورو فى ابتكار المقالة التى تعالج الطبيعة بهذا الأسلوب المتميز . وكان كتاب الطبيعة قبل ذلك قد أنتجوا « رسائل » و « شذرات » و « يوميات » سجلوا فيها اكتشافاتهم ، لكن ثورو كان أول من اهتم بعنصر الصنعة فى هذا المجال ؛ ولذلك كان أول من جعل مقالة الطبيعة شكلاً أدبيًّا محدداً ومستقلا بذاته . وعلى سبيل المثال : فإننا نحتاج فقط لمقارنة الفقرة الشهيرة التى كتبها ثورو عن طائر « اللون » فى « والدن » بالتقرير الذى كتبه أودبون عن « طيور اللون » وألحقه بكتابه « طيور أمريكا » لكى نرى الفرق : فالأخير تقرير علمى ، أما الأول فتقرير فنى

دعنا الآن ننظر إلى « والدن » باعتباره فنًّا ؛ فإنه غالباً ما يشار إليه على أنه أول نموذج للنثر الأمريكى الحديث . ولعل الاختلاف ذا الدلالة يكمن فى أسلوبه المتميز عن معاصريه – حتى عن أعمال رجال موهوبين مثل هوثورن وميلفيل وإيمرسون – إذ إن النثر الذى كتب به يحمل ملامح القرن العشرين . وإذا سلمنا بأن الموضوع المتناول ينتمى بوضوح أحياناً إلى القرن التاسع عشر وخاصة عندما يتكلم عن الفلاحين الذين يقودون قطيع الماشية إلى السوق ، أو عن أهالى المدينة وهم يركبون عرباتهم مارين بالبركة – فمع ذلك الأسلوب الذى يشكل به جمله والذى يختار به كلماته ينتمى تماماً إلى القرن العشرين ! فالجمل مباشرة ومركزة ومرتبطة تماماً بالنقطة التى تعالجها : فليس هناك تسكع مثل ذلك الذى اشتهر به منتصف العصر الفيكتورى ، فى حين تبدو الكلمات محددة حسية ملموسة لا تنتمى إلى الغموض أو التجريد بصلة . ولعله من المثير للدهشة أن يوجد اختلاف طفيف بين نثر ثورو الذى كتبه فى القرن

التاسع عشر ونثر إيرنست هيمنجواى أو هنرى ميللر الذى كتب فى القرن العشرين فيما عدا أن أسلوبه أقل رتابة عنهما .

ولابد أن نؤكد توظيف ثورو للغة البديع : إن المرء يستطيع أن يجد فى « والدن » نماذج لكل نوع من المحسنات البديعية عرفتها اللغة ابتداء من الإطناب والتكرار إلى التهكم للإقلال من شأن الموضوع ، أو أن يختار محسنات غريبة وشاذة مشتقة من التشبيهات والتلاعب بالألفاظ . وهناك منها الكثير المنثور هنا وهناك خلال الكتاب لدرجة أن أحداً حتى الآن لم ينجح بعد فى تصنيفها كلها . وكمثال على هذا دعنى ألقى الضوء على أحد هذه المحسنات المفضلة لديه : فعندما كان فى « منطقة البرك » تجده يتحدث عن صياد السمك الناجح فى بركة والدن بصفته عضواً فى « جمعية للتأمل الصوفى » C.O.E.N.O.B.I.T.E.S ، وهو هنا لا يلمح فقط إلى انتماء الصياد إلى مثل هذا التنظيم ، بل إننا إذا نطقنا الكلمة بحرص فإننا سنجد أيضاً أن ثورو يقول « See` no bites » . بمعنى أن السمك تعوّد أن يلتهم الطعم دون أن تصطاده السنارة !

ويقودنا اللعب بالألفاظ من ثم إلى موضوع الفكاهة الساخرة أو روح الدعابة فى « والدن » . ففى مقالة جيمس راسل لويل الشهيرة عن ثورو والتى نشرت فى عام ١٨٦٥ نجده يقرر بنوع من الكبرياء أو التكبر أن ثورو لم يكن يملك روح الدعابة . وقد قامت هذه الجملة بالفعل بإثبات أن لويل وليس ثورو هو الذى تنقصه روح الدعابة ، فإنه يبدو غالباً من غير المفهوم أن يستطيع أحد استيعاب « والدن » بدون إدراك الوميض المنبعث من سرعة بديهة ثورو فى كل صفحة : فالدعابة ليست دائماً عنيفة ومكشوفة على الرغم من أنها تبدو كذلك فى بعض الأحيان كما نجد عندما يتكلم ثورو عن عملية نشر الجليد بالمنشار لعمل حفرة على سطح البركة وهى التى تستدعى وجود الرجل الآخر تحت الجليد ، لكن سرعة البديهة الذكية نجدها فى كل صفحات الكتاب . إنها « دعابة نقدية أو ناقدة » ؛ إنها ليست هناك ببساطة لكى تخفف من وطأة الكتاب ، وتجعلنا نضحك كما هى الحال فى روح الدعابة عند جوناثان سويفت أو فولتير أو مارك توين أو برنارد شو ؛ فهى موجودة لكى تجعلنا نفكر ، قد نضحك عندما نقرأ : إنه « عندما يضع القرد الباريسى قبعة المسافر على رأسه — فإن كل القرود فى أمريكا تفعل الشىء نفسه ! » وذلك على سبيل المثال ، لكن ضحكنا ينطوى على معرفتنا بأن ثورو يجعل منا قروداً بطريقة أو بأكثر من طريقة ! فى هذا السطر كما فى سطور أخرى كثيرة يستخدم

ثورو روح الدعابة والتهكم ؛ لكى يوضح «كم نحن من حمق ، نحن الذين كتب علينا الفناء ! » .

ويرتبط استخدام ثورو لعنصر المبالغة ارتباطاً وثيقاً بتوظيفه لروح الدعابة : فقد وضع قولاً مأثوراً فى بداية الطبعة الأولى «لوالدن» كان قد حذف لسوء الطالع من طبعات كثيرة صدرت بعد ذلك : يقرر فى هذا القول المأثور : «إننى لا أعرض لكتابة أغنية أناجى فيها روح الكآبة ، بل إننى أصيح باندفاع ديك الصباح نفسه على غصنه لكى أوقظ جيرانى من غفلتهم ! » . لقد كان ذلك بمثابة تحذير من أن ثورو غالباً ما يبالغ عن عمد فى الحديث عن قضيته ببساطة لكى يسترعى انتباه قرائه إليها . وإذا استطاع أن يثير دهشة مستمعيه بما فيه الكفاية بحيث يوقظ اهتمامهم تماماً – فإنه عادة مايكيف موقفه طبقاً لمنهج أكثر عقلانية . وكمثال ممتاز على هذا المنهج يمكننا أن نقرأ مقالته عن «العصيان المدنى» التى يفتتحها بهذه الجملة : «إننى أوافق من صميم قلبى على الشعار الذى ينادى بأن «أفضل حكومة هى التى تحكم أقل ! » . . . فإذا وصلنا به إلى نهاية مداه – وهو ما أؤمن به أيضاً – «إن أفضل حكومة هى الحكومة التى لا تحكم على الإطلاق ! » . فإنه فى فقرتين وردتا بعد ذلك نجده يعيد صياغة هذا الشعار الذى تعمد أن يجعل منه موقفاً مستعراً فى غضبه فيقول فى نبرة أكثر هدوءاً : «إننى لا أطالب بحياة بلا حكومة على الفور ، لكننى أطالب بحكومة أفضل فى الحال» . وهناك أمثلة مشابهة لذلك يمكن أن نجدها فى «والدن» .

ويعد ثورو ناقداً اجتماعيًّا أيضاً . فإن واحداً من أهدافه الأساسية أن يظهر العيوب الاجتماعية لعصره . وفى الحقيقة فإنه بسبب هذه العيوب بالذات التى اختار أن ينقدها بمنتهى الخشونة ، والتى أصبحت سائدة فى عصرنا بأسلوب مبالغ فيه – يبدو ثورو وكأنه يتكلم مباشرة إلى عصرنا أكثر من حديثه إلى عصره ! ونادراً ما فهمه معاصروه عندما كان يشكو حياتهم المعقدة بشكل واضح ، وعندما ألمح إلى أن «كتلة البشر» تعيش «حياة كلها يأس هادئ ! » ، وعندما أكد أن ما نسميه «تقدماً» لم يكن دائماً تقدماً بالضرورة ، كذلك لم يكن «النجاح» دائماً نجاحاً ، وعندما أعلن أننا غالباً ما خلطنا بين الغايات والوسائل وبين الوسائل والغايات ، أو عندما ادعى أنه من المحتمل أن يكون الإنسان البدائى قد عاش حياة أسعد وأفضل فى بعض الوجوه من حياتنا هذه ، لكننا الآن وبعد قرن من الزمان نجد أنفسنا وجهاً لوجه مع المشكلات التى تنبأ بها نفسها والتى تجعلنا نعتبره نبى عصرنا نحن . .

وربما من المهم فى هذه النقطة أن نصحح الانطباع العام والخاطئ عن ثورو كفيلسوف البدائية الذى طلب من كل إنسان أن يهجر الحضارة ويتعود الحياة فى الغابات .

فى المقام الأول يجب أن ندرك أنه قضى فترة لا تزيد إلا قليلاً على سنتين ، أى حوالى خمسة فى المائة من حياته عند بركة والدن التى لم تكن نائية فى البرية ، بل كانت على مسافة ميلين فقط من قلب كونكورد . ولم تكن حياته هناك حياة عزلة ، وكوخه لم يخل من التيار المتجدد للزائرين المترددين عليه فقط ، بل تعود أن يقوم برحلات يومية تقريباً إلى القرية لكى يرى عائلته وأصدقاءه . وكما قلنا بالفعل فإن الأهم من هذا أنه خرج عن إطاره السردى ؛ ليقرر بالتحديد أنه لم يكن يرغب فى خلق مقلدين له يتبعونه إلى الغابات . وإذا كان مهتمًّا بصفة شخصية بمراقبة الطبيعة والكتابة عنها – فإن هذا اتفق مع رغباته الشخصية فى الذهاب إلى بركة والدن للعيش هناك ، لكنه يؤكد أن الإنسان يستطيع أن يعيش هذه الحياة البسيطة فى أى مكان إذا عقد العزم على هذا . واستمر ثورو فى العيش بالبساطة التى عاش بها نفسها عند البركة عندما عاد إلى كونكورد .

وهكذا نحن أيضاً – إذا كانت لدينا الرغبة – نستطيع أن نحيا الحياة البسيطة نفسها سواء فى القرية أو فى المدينة الصغيرة أو الكبيرة . ونحن نستطيع أن نخلق والدن الخاصة بنا فى قلب نيويورك ولندن وبومباى وطوكيو . فى والدن تلك يمكننا أن نحيا حياة ذات هدف ، ومعنى أكبر ، وبهجة أكثر . ذلك هو الجوهر الحقيقى « لوالدن » .

ولم يناد ثورو أيضاً برفض المزايا المادية التى أنتجها العلم الحديث ، بل على النقيض تماماً من ذلك فقد أبرز أننا لم نستخدمها أفضل استخدام ممكن . وكما قال عن هذه المزايا : إنها غالباً ما تحولت إلى مجرد « وسائل محسنة لغايات غير محسنة ! » . ونحن نصل إلى آفاق بعيدة عندما نقيم الكابل البحرى عبر المحيط الأطلنطى ، ثم نستخدمه فى الاستفسار عن « السعال الديكى الذى ربما يكون قد أصاب الأميرة أديليد » بدلاً من نقل الأفكار العظيمة . ونحن نمد خطًّا للسكك الحديدية لكى نوفر ساعة من الزمن الذى نقضيه فى السفر إلى المدينة ، ثم بتضييع هذه الساعة عندما نصل إلى المدينة . ويستطيع المرء أن يتخيل جيداً. ماذا كان يمكن أن يقول ثورو إذا عاش ليرى ابتكار جهاز التليفزيون والطيارة النفاثة ؟ فمن المؤكد أنه كان يستطيع أن يجد لها استخدامات أفضل من تلك التى نمارسها الآن .

وعلى أية حال فإنه من المهم أن ندرك أنه لم يكن مجرد ناقد سلبى أو ناقد هدام : فلقد كان

إيجابيًّا وبناء إلى حد أبعد من هذا بكثير ، لم يتردد فى إبراز مشكلات مجتمعه لكن الأهم من ذلك أنه أبرز الحلول أيضاً . وإذا كنا نشعر بتعقيدات مجتمع اليوم وهى تجرفنا – فهناك مخرج من هذا المأزق . كانت الكلمة المأثورة عنه «تباسَطُوا ، تباسطوا ، تباسطوا ! » قد يكون المجتمع معقداً ، لكنه ليس من الضرورى أن تكون حياتنا كذلك إذا كنا نملك مجرد الذكاء فى اختيار ما يهمنا فقط من هذا التعقيد ، وإذا كانت لدينا الشجاعة أن نتجاهل الباقى مهما كان ظن معاصرينا فينا – فإننا نضيع حياتنا فى محاولة لا طائل من ورائها لجعلها تتمشى مع رغبات المحيطين بنا . وكما يقول ثورو مراراً وتكراراً إننا نضيع الكثير من حياتنا فى الحصول على معيشتنا وفى محاولتنا التشبه بمن هم أعلى منا فى الطبقة الاجتماعية والمستوى الاقتصادى ! فإذا خفضنا فقط من احتياجاتنا فإننا من ثم سنخفض من نسبة الوقت الذى نكرسه فى كسب قوتنا ، وسنزيد من نسبة الوقت الذى نقضيه فى عمل الأشياء التى نرغب فى عملها حقًّا .

وكان ثورو عند بداية حياته الجامعية فى عام ١٨٣٧ قد صرح بأنه يريد أن يجعل الآية الإنجيلية معكوسة : فبدلاً من العمل ستة أيام فى الأسبوع والاستراحة فى اليوم السابع – فإنه سيعمل يوماً واحداً فقط فى الأسبوع وسيستريح فى الأيام الستة الباقية ! وهذا هو البرنامج الذى قام بتنفيذه تماماً عند بركة والدن . وتبسيط حياته بحيث لا تتطلب منه سوى الضروريات فقط – وجد أنه يستطيع أن يبنى بيتاً بمبلغ ثمانية وعشرين دولاراً واثنى عشر سنتاً ونصف السنت ، وأن يعيش على مبلغ سبعة وعشرين سنتاً فى الأسبوع ! وكان يكسب بما فيه الكفاية بحيث يغطى هذه المصروفات فى ستة أسابيع من أجل العام بطوله ، أما الستة والأربعون أسبوعاً الباقية فكانت ملكه تماماً ليفعل بها ما يحلو له ، ومن ثم فإنه لم يبدد هذه الأسابيع الستة والأربعين ، بل كرسها للكتابة ودراسة الطبيعة . وقبل أن يشعر أحد بالإغراء الشديد لكى يوصم ثورو بالكسل – فإنه يجب أن يضع فى اعتباره أنه فى حياته القصيرة أنتج أكثر من عشرين مجلداً من النثر الذى يتصدر الصف الأول ، وهذا بالطبع إنجاز مهول . ولقد تغير نظامنا الاقتصادى بما فيه الكفاية عن القرن الماضى بحيث أصبح غير ذى معنى أن نحاول تحقيق أرقام ثورو تماماً فيما يختص بالدخل والمنصرف ، لكن صلاحية المبدأ ما زالت هناك !

وثورو ليس ناقداً إيجابيًّا وبنّاء فقط ، بل هو ناقد متفائل أيضاً : فهو مقتنع تمام الاقتناع بأنه إذا عقد الإنسان العزم من صميم عقله وقلبه فإنه يمكنه أن يخلق جنة هنا على الأرض ، وهو مقتنع بالدرجة نفسها بأن الجنس البشرى سيفعل هذا بالضبط فى يوم ما .

كان ثورو فيلسوفاً ترانسيدنتاليا ، وربما كان أكثر أعضاء هذه المجموعة من الكتاب وضوحاً ودقة فى فلسفته الترانسيدنتالية : ففى جوهر هذه الفلسفة يكمن الاعتقاد بأن كل إنسان فى داخله قدرة ممنوحة من الله لكى يختار بين الصواب والخطأ . ولسوء الطالع فغالباً ما أهمل الإنسان هذا الصوت الداخلى وأصيب باللامبالاة تجاه مضمونه لدرجة أنه لم يعد يسمعه ! فإذا أراد الكفاح من أجل العودة إلى براءة الطفولة النابعة من الله فعليه بتجديد هذا الصوت ونشره بنفسه .

وإذا أدركنا أبعاد التقدم الأخلاقى الذى أنجزه الإنسان منذ أيام إنسان الكهف فإن ثورو كان مقتنعاً بأن تقدماً أخلاقيًّا أعظم يمكن إنجازه فى المستقبل خلال ما ظن أنه انتشار حتمى لاتباع المفاهيم الترانسيدنتالية ؛ فهى تجديد روحى للجنس البشرى . ومن المهم أن نلاحظ أن أحد المفاهيم الرئيسية فى «والدن» تكمن فى ذلك التجديد .

وعلى الرغم من أنه عاش بالقرب من البركة لأكثر من عامين فقد عمد إلى مزجهما وتحويلهما إلى عام واحد فى كتابه ، ليست فقط من أجل الوحدة الفنية ، بل لهدف أبعد من هذا : فقد استطاع عبر دورة الفصول أن يؤكد مفهوم التجديد فقد بدأ «والدن» بذهاب ثورو إلى البركة فى الربيع ، ثم تتبعه الكتاب فى حياته خلال الصيف والخريف والشتاء ، منتهياً بتجديد الحياة فى الربيع . هذا هو الهيكل الرئيسى للكتاب . إنه الهيكل الذى استوعب نسيج كل أنواع الجمال المرتبطة بالتصميم ؛ كما نجده يتكلم على سبيل المثال عن «الأحوال الاقتصادية» التى عاشها الهنود الأمريكيون الذين كانوا يتخلصون بانتظام من فضلاتهم وقمامتهم بحرقها فى نار يرقصون حولها فيتجددون بالتخلص من رواسب الماضى . أوكما نجد فى «خاتمة» الكتاب عندما يتحدث عن الحشرة الغريبة التى دفنت نفسها فى خشب مائدة صنعت من شجر التفاح ستين عاماً ، ثم عادت فجأة إلى الحياة ! أو عن البركة التى تنام هى نفسها كل عام تحت غطائها الشتوى من الجليد فقط ؛ لكى تعود إلى الحياة كل ربيع !

وفى كل مرة يكرر ثورو صورة التجديد - كان يؤكد أمله وإيمانه بأن الجنس البشرى سوف يجدد روحه لا محالة بحيث يؤدى به هذا إلى إنجازات أعظم . إنها ليست إنجازات مادية بالضرورة بل روحية . واعتقاد مثل هذا يعد عصارة الفلسفة الترانسيدنتالية نفسها .

وقد ذكرت مقالة ثورو عن «العصيان المدنى» عدة مرات . وعلى الرغم من أنها ليست جزءاً لا يتجزأ من «والدن» إذ إنه أشار إليها إشارة عابرة فى فصله عن «القرية» - فإنها قريبة

جداً فى روحها من « والدن » بحيث يمكن اعتبارها جزءاً منه . وفى الواقع فإنه يكاد يكون من المستحيل أن نناقش أحدهما دون الآخر . فعلى غرار « والدن » كتبت « العصيان المدنى » بناء على طلب أحد مواطنيه الذى كان قد أصيب بالدهشة والتساؤل عن السر فى إصرار إنسان على عدم دفع ضرائبه إلى الدولة ؛ لأنه « يسعى » إلى فرصة تمكنه من دخول السجن . وكانت خلفية المقالة كالتالى : لقد عارض ثورو الرق بشدة لدرجة أنه صمم على عدم دفع الضرائب التى تدعمه . وكنتيجة حتمية لهذا تم القبض عليه وإيداعه الحبس ، لكنهم أطلقوا سراحه فى الصباح التالى ؛ لأن شخصاً ما دفع الضرائب المستحقة عليه بدون إذنه ! ومن الواضح أنه استمر فى دفعها نيابة عنه طيلة حياته بعد ذلك . لقد كان هدفه إيقاظ ضمائر مواطنيه من خلال القبض عليه بحيث يدفعهم إلى إلغائها أو إبطال مفعولها بالانضمام إليه فى السجن فى أعداد ضخمة بما فيه الكفاية بحيث يتوقف الجهاز الحكومى عن الحركة إلى أن يتم إلغاء القوانين الظالمة . وقد تسبب الإفراج عنه من الحبس على غير هواه فى منعه من تنفيذ احتجاجه بصفته الشخصية ؛ لكن المحاضرة التوضيحية التى كتبها لمواطنيه وصلت إلى أربعة أركان المعمورة ، وألهمت قادة عالميين مثل المهاتما غاندى ومارتن لوثر كنج . وهى تشكل أيضاً جوهر الفلسفة الترانسيدنتالية لأنها تحث كل إنسان على اتباع ما يمليه عليه ضميره لقيادة الجنس البشرى إلى عالم أفضل . ولا يستطيع أحد أن يقرأ « والدن » بدون قراءة المقالة الهامة عن « العصيان المدنى » والتى تساويه فى الأهمية . ولحسن الحظ فإن عدد الناشرين الذين يطبعون الاثنتين فى مجلد واحد يتزايد أكثر باطراد فى أيامنا هذه .

وعلى الرغم من تعليق هنرى جيمس الشهير الذى هاجم فيه ثورو – فليس هناك سوى قليل من النظرة الضيقة فى عمل ثورو ، هذا إذا كانت هذه النظرة موجودة على الإطلاق . حقاً لقد قضى حياته كلها تقريباً فى قرية صغيرة من قرى نيو إنجلاند ، لكن الأفكار التى عالجها كانت عالمية أكثر منها إقليمية ، وهذه الحقيقة قد ثبتت من خلال ترجمة أعماله إلى لغات كثيرة جداً .

ومن ناحية أخرى فإن هناك الكثير من الروح الأمريكية البحتة فى أعماله . ولا جدال فى تلك الروح الرائدة التى اشتهر بها مكتشفو الحدود حتى لو كان ثورو قد اختار أن يخلق حدوده الخاصة به فى المدينة التى يعيش فيها بدلاً من الانطلاق صوب الغرب المتوحش .

ولا شك فى أن المجموعة النباتية والحيوانية التى يصفها أمريكية بحتة . وذلك على الرغم

من أنه يكتب عنها من خلال اصطلاحات عالمية لا تجعل المرء فى حاجة إلى دليل يرشده إلى الطيور والزهور التى فى الشمال الشرقى للولايات المتحدة لكى يتذوق عمله .

وهناك خاصية الخشونة والرجولة التى تميز اختياره للألفاظ وصياغته للأسلوب بحيث تجعله يبدو أمريكيًّا بحتاً . ولعل أكبر دلالة له إنما هى فى الخطوط الفكرية التى تشكل عمله ؛ فكل من «والدن» و«العصيان المدنى» يعد – أساساً – التطورات المنطقية للفلسفة الكامنة فى الإعلان الأمريكى للاستقلال .